الحياة التعليمية في مصر الفاطمية

أ.د. الشريف يحيى بن حمزة الوزنة السليماني الحسني
أستاذ دكتور- في جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية

المستخلص:

إن التعليم من أهم الركائز الأساسية التي تقوم عليها الأمم، وقد جاء الدين الإسلامي داعماً لهذا المبدأ وذلك بحثه على القراءة في أول آية نزلت على نبينا محمد ﷺ. ومن هذا المنطلق بدأ رسولنا عليه السلام يعلم أمته الدين الحنيف، ثم انتشرت دعوته في بقاع الأرض. وهكذا استمرت الدولة الإسلامية بعد النبوة في عهد الراشدين والأمويين والعباسيين بالاهتمام بتعلم القرآن والأحاديث الشريفة، ثم اللغة العربية ومشتقاتها من النحو والأدب وغيرها من العلوم الإنسانية. وكان طلاب العلم يتلقون دروسهم في الجوامع ودور العلم، وقد اهتم الخلفاء والسلاطين وملوك المسلمين بذلك، كما كانت لعلماء المسلمين منزلة عُليا لديهم. ومن أمثلة ازدهار التعليم في التاريخ الإسلامي، دور الدولة الفاطمية في مصر على التعليم. وهو ما يتناوله البحث الذي بين أيدينا «الحياة التعليمية في مصر الفاطمية»، حيث يبين أهمية التعليم لدى الدولة الفاطمية وجهودها في نشر مذهبها عن طريق المساجد ودور العلم التي كان لها أثر كبير في نشر التعليم. وبناءً على ذلك، سوف يناقش البحث دور الفاطميين في مصر وأهم إنجازات التعليم، مثل: جامع عمرو بن العاص، جامع أحمد ابن طولون، الجامع الأزهر، دار العلم، التعليم في القصور وخزائن الكتب. ويخلص هذا البحث إلى التأكيد على استطاعة الدولة الفاطمية نشر مذهبها من خلال المساجد ودور العلم والمدارس وذلك لقوة نفوذها، كما عنيت بنشر العلوم الأخرى مثل الفلسفة والطب والنجوم وغيرها.

كلمات مفتاحية: تاريخ، الدولة الفاطمية، تعليم، مصر، دور العلم

Abstract:

Learning is considered amongst the most crucial foundations upon which nations are based. The religion of Islam came to advocate this principle as it urged its followers to read in the first Quranic verse revealed to the Prophet Mohammad Peace be upon

him. Following this path, our Prophet started teaching his people the religion of Islam, until his massage spread all over the globe. The Islamic State went on to be concerned with teaching the Quran and Prophetic traditions in the era of Caliphs, Umayyads and Abbasids. Moreover, the Islamic State was also concerned with teaching Arabic with all of its derivations, such as syntax, literature and other humanities. Students were receiving their lessons in the Mosques and knowledge-given houses as Caliphs, Sultans and all Muslim Kings were concerned with this matter and positioned scientists on such a high rank. An example of the flourishing of education in Islamic history is the role of the Fatimid state in Egypt on education. The present paper addresses the "Educational Life in Fatimid Egypt", which expresses the importance of education for the Fatimid State and its efforts in spreading its principles through the Mosques and knowledge-given houses which played a significant role in the spread of education. Accordingly, the present paper discusses the role of the Fatimids in Egypt and the most important achievements of education, such as:Amr Ibn Al-Aas Mosque, Ahmed Ibn Tulun Mosque, Al-Azhar Mosque, knowledge-given house, learning in palaces and book warehouses. The present paper concludes that the Fatimid State was able to spread its principles through the Mosques, knowledge-given houses and schools due to the full control it possessed over Egypt. In addition, it was concerned with spreading other sciences, such as philosophy, medicine, astrology and others

المقدمة:

عندما دخل الفاطميون مصر في شعبان سنة 358هـ/968م تحت قيادة جوهر الصقلي كان غالبية [1] سكانها من أهل السنة على مذهبي مالك والشافعي. حقيقة أن التشيع كان معروفاً بمصر قبل هذا التاريخ، ولكن أصحابه كانوا قلة وغالباً ما تعرضوا لكثير من المضايقات والاضطهادات. من ذلك ما يذكره المقريزي[2] من أن سودان كافور كانوا يتعصبون على الشيعة ولذلك لم يكن لهم نفوذ أو تأثير في الحياة العامة سوى بعض الاضطربات

التي كانت تحدث عندما يحتفلون ببعض مناسباتهم العقائدية. ولا شك في أن هذا السبب دعا جوهر القائد إلى الإسراع في بناء مدينة القاهرة لاتخاذها عاصمة للفاطميين بعيداً عن معاقل أهل السنة في الفسطاط وغيرها. يبدو أنه كان في عجلة من أمره، إذ يقال إنه بمجرد استسلام الأخشيديين له دخل «من الغد إلى مصر في طبوله وبنوده وعليه ثوبديباج مذهب، ونزل بالمناخ، وهو موضع القاهرة اليوم؛ واختطها وحفر أساس القصر في الليلة، وبات المصريون في أمن؛ فلما أصبحوا حضروا لهنائه فوجدوه قد حفر أساس القصر في الليل» [3]. وإذا كان هذا إحساس القادم الجديد الذي فتح مصر على رأس جيش من المغاربة[4] حاملاً مذهباً جديداً، فإنه بمجرد استيلائه على السلطة أعلن المذهب الشيعي[5] مذهباً رسمياً للدولة وصار العمل بمقتضاه في القضاء والإفتاء وأنكر ماخالف ذلك من بقية المذاهب[6]. وعلى هذا الأساس بدأ جوهر سياسة الدولة الجديدة بفرض مذهبها والعمل على نشره. ولم يكن ذلك بالأمر السهل لأن معتنقي المذهب الجديد من المصريين لم يكونوا إلا فئة قليلة بالنسبة لباقي المصريين الذين رأوا في المذهب الشيعي خروجاً عن معتقداتهم وآرائهم في بعض جوانب الديانة[7]. ومن أجل أن يستوعب الداخلون في هذا المذهب أحكامه ومعتقداته كان لزاماً على الفاطميين نشر دعوة واسعة واتباع سياسة تعليمية تمكنهم من نشر دعوة واسعة واتباع سياسة تعليمية تمكنهم من نشر مذهبهم وكان أن بدأ نشاطهم يتغلغل إلى أماكن التعليم القائمة، حيث كانت تعقد حلقات العلم وخاصة في جامع عمرو بن العاص، وجامع ابن طولون والجامع الأزهر.

الفاطميون في مصر:

جامع عمرو بن العاص:

الواقع أن نصيب جامع عمرو من عناية[8] الفاطميين كان عظيماً جداً، وذلك بوصفه ركناً من أركان التعليم، فضلاً عن كونه ركناً للصلاة والعبادة. والثابت تاريخياً أن جامع عمرو بن العاص كان معهداً[9] تعليمياً ضخماً، وحظي طلاب العلم فيه برعاية الدولة سواء كانوا من السنيين أو الشيعة، وقد حظي هذا الجامع بالرعاية طوال عصر الفاطميين. ففي عهد العزيز بالله أمر وزيره يعقوب بن كلس بأن يعمل فيه فوارة كما جدد بياضه في سنة 387هـ/977م[10]، وحظي الواردون إلى الجامع باهتمام العزيز الذي خصص مائدة وطعاماً لمن يحضر إلى الجامع في رجب وشعبان ورمضان[11]. ومن أهم كتب الشيعة التي كانت تُدرّس بجامع عمرو(كتاب بن يعقوب) الذي يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية كما سمعه بنفسه عن المعز لدين الله وابنه العزيز[12].

أما الحاكم بأمر الله فقد صنع له تنوراً[13] من الفضة وحمل إليه الفرش والحصر السامانية[14] وقناديل الذهب والفضة وعلق الستر على الأبواب[15]. كذلك عنى الحاكم بشؤون العلم والمشتغلين به، فزود جامع عمرو بمكتبة ضخمة نقلت إليه من خزائن القصر بلغت ألفا ومائتين وثمانية وتسعين مصحفاً مابين ختمات وربعات، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب، ومكّن الناس من القراءة فيها[16]، كما خصص الرواتب[17] لمن يأوي إلى المساجد من الفقهاء والقرّاء والغرباء[18]. ومع ذلك فإن علوم الشيعة لم تلق الإقبال الذي كان منتظراً لها في جامع عمرو بعد أن ظل سنين طويلة معقلاً لتدريس فقه المذاهب السنية، حيث درس به كثير من علماء هذه المذاهب وعلى رأسهم الإمام الشافعي نفسه. لذلك أقبل الطلبة فيه على حلقات الفقهاء السنيين[19] دون غيرهم. ومن ذلك ما ذكره السيوطي من»أن أبا النعالى إمام المالكية بمصر المتوفي سنة 380هـ/990م كانت تدور حلقته في الجامع على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها»[20]. ومهما يكن في كلام السيوطي من مبالغة فإنه يكفي أن عبارته السابقة تؤكد أن الدراسات الخاصة بمذهب أهل السنة كانت لا تزال قائمة ومزدهرة في العصر الفاطمي، كما يفهم من كلامه أيضاً أن كثيراً من الفقهاء السُنيين قاموا بالتدريس في جامع عمرو في ذلك العصر[21].

جامع أحمد بن طولون :

أما جامع ابن طولون فقد حظي أيضاً باهتمام الفاطميين، فقد حدث في سنة 376هـ/986م أن احترقت بعض أجزائه فاستمر الجامع مهملاً حتى أمر العزيز بالله ببناء فوارة[22]عوضاً عن التي احترقت وترميم باقي الأجزاء التي تأثرت بالحريق[23] وفي زمن الحاكم بأمر الله زود الجامع بثمانمائة وأربعة عشر مصحفاً[24] وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد أنه كان في هذا الجامع تعقد بعض الدروس ولكنها لم تكن في حجم ولا أهمية الدراسات التي كانت تُعقد في جامع عمرو، ولذلك نجد أنه لم يكن لهذا الجامع ذكر كثير في المصادر التاريخية خصوصاً في دولتي الفاطميين والأيوبيين، ولم يلعب جامع ابن طولون دوره في الحياة العلمية إلا في زمن المماليك[25]. وهكذا اضطر الفاطميون في سبيل الله نشر مذهبهم إلى اتباع طريقتين، الأولى هي الإغراء والترغيب بقصر شغل المناصب على معتنقي المذهب الشيعي، والأخرى التهديد والوعيد. من ذلك ما ذكره المقريزي من أنه حدث في سنة 381هـ/991م أن «ضرب رجل بمصر وطيف به المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس»[26]، كما قبض على ثلاثة عشر[27] رجلاً وضُربوا وشُهروا وحُبسوا ثلاثة أيام لأنهم صلوا صلاة الضحى[28].

الجامع الأزهر:

على أن جوهر لم يقتنع بما في مصر من جوامع قديمة كانت منذ تأسيسها مراكزا للمذهب السني[29]، وإنما بدأ بإنشاء جامع جديد ليكون مقراً ومركزاً لتعليم فقه المذهب الشيعي[30] وكان ذلك سنة 359هـ/970م عندما وضع جوهر أساس الجامع الأزهر الذي تم بناؤه في شهر رمضان سنة 361هـ/972م[31]. وبذلك اكتملت أركان القاهرة وصار الأزهر مركزاً لعلماء الشيعة الذين سبقوا المعز في الحضور إلى مصر أو الذين حضروا في صحبته وسرعان ما بدأ استخدام الأزهر في المهمة التي أنشئ من أجلها. ففي صفر سنة 365هـ/975م جلس به القاضي علي بن النعمان وأملى مختصر أبيه في الفقه عن آل البيت ويعرف هذا المختصر بـ (الاقتصار) وحضر هذا المجلس جمع عظيم من الناس أثبت أسماءهم عنده [32]. ومما لا شك فيه أن الغرض الأساسي من بناء الجامع الأزهر هو أن يكون مدرسوه قاموا بالدور المطلوب منهم وهو نشر الدعوة الشيعية ومعتقداتها بين الناس. أي إنه كان مركزاً لتدريب دعاة المذهب وتخرجهم، ولكنه لم يلبث أن تطور ليصبح جامعة من أهم الجامعات الإسلامية التي يقصدها المعلمون[33] والمتعلمون، وتم ذلك التطور بفضل جهود الوزير يعقوب بن كلس[34] الذي بدأ أول الخطوات ليجعل منه معهداً دراسياً واسع النشاط. ذلك أن الوزير يعقوب بن كلس نفسه كان من كبار علماء المذهب الشيعي وكان يجلس لقراءة كتب الفقه وخاصة ما كتبه عن المعز والعزيز، فرتب العزيز بالله خمسة وثلاثين فقيهاً لملازمة ابن كلس في مجالسه العلمية للتتلمذ على يديه ورتب لهم الأرزاق الشهرية التي تكفيهم وأمر ببناء دار لهم إلى جانب الجامع الأزهر فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد صلاة العصر وكان لهم من مال الوزير أيضاً صلة في كل سنة[35]، وكانت هذه أول دراسة منتظمة بالأزهر ويدل ذلك على الاهتمام بهم من أنه تم تخصيص دار لإقامتهم وصرف الأرزاق المنتظمة لهم بل وصل اهتمام العزيز بهم أن خلع عليهم يوم الفطر وحملهم على البغال[36] احتراماً وتقديراً لهم.

على أن الأزهر أخذ يتخلص نوعا ما من النزعة المذهبية بعد افتتاح جامع الحكم الذي وضع أساسه العزيز بالله بإشراف وزيره ابن كلس لنقل الحلقات العلمية التي كانت تقام بالأزهر[37] إليه فلما مات العزيز بالله دون إتمامه أكمله الحاكم ونسب إليه وأذن لمن يبيت بالأزهر أن يمضي إليه[38].

ثم أنشأ الحاكم دار العلم وتحول معظم العلماء إليه مما أثر في المركز العلمي للجامع الأزهر. ولكن يبدو أن تحول العلماء عنه كان سبباً في تجرده من الصبغة المذهبية[39]. وساعد على ذلك ما أظهره الحاكم من التسامح في أول سنة حكمه حتى درس بالأزهر بعض علماء

السنة في علوم الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات ولكن في حدود ضيقة[40]. ومع ذلك فإن إنشاء دار العلم لم يؤد بأية حال إلى إهمال الجامع الأزهر. بل إن الحاكم رتب عليه بعض من الأوقاف التي تصل كل سنة ألفا وسبعة وستين ديناراً للصرف منها على عمارته وشراء ما يلزمه من فرش وحصر وما يستخدم في نظافته وارزاق من به من الموظفين[41].

دار العلم :

تولى الحاكم بأمر الله الخلافة في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة 386هـ/996م وكان منذ صغره يشتغل بالآداب والدروس والنظر في دقائق الأمور مثل النجوم[42] والارصاد والكيمياء والعزائم والطلسمات وسائر علوم الرياضيات ولكنه كان شغوفاً بعلم النجوم،عمل رصداً واتخذ بيتاً في المقطم ينقطع فيه عن الناس لإجراء دراساته وتأملاته[43].

قام الحاكم بإنشاء دار الحكمة التي فتحت أبوابها في جمادى الآخرة سنة 395هـ/1005م وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء، وجمع فيها من الكتب في سائر العلوم ما لم ير مثله مجتمعاً[44]. وكان لتسمية هذه الدار بدار العلم أو بدار الحكمة مغزى يدل على الاتجاه الفلسفي الحر الذي اختاره لهذا المعهد[45].

وقد قسمت هذه الدار إلى عدة أقسام أي قاعات للمحاضرات حسب العلوم التي تدرس أو تبحث فيها من طب وتنجيم وفلك وفلسفة، عدا علوم الفقه على مذاهبه وعلوم اللغة والقراءات والحديث وغيرها . كذلك تم تزويدها بمكتبة ضخمة[46] كانت خير عون للباحثين والدارسين بها مع توفير الاموال اللازمة للصرف منها على أرباب الوظائف والمشتغلين بالعلم ، فأجرى على من فيها من الخدام[47]فضلاً عن المعلمين والمتعلمين الأزراق السنية. ووفر بها ما يحتاج إليه رجال العلم من الحبر والأقلام والمحابر والورق[48] لمن يريد القراءة والإطلاع أو لمن يريد النسخ والنقل[49]. ونتيجة طبيعية لهذا التسامح الديني من ناحية والرعاية المادية لأهل العلم من ناحية أخرى فضلاً عن تهيئة الجو العلمي الملائم للجميع. هرع إلى دار العلم العلماء والطلاب من كافة المذاهب وسائر البلاد.

ومن علماء السنة الذين اشتغلوا بالتدريس في دار الحكمة الحافظ أبو محمد عبدالغني[50] وكان عالماً من علماء الحديث حافظاً له، ومن مؤلفاته (مشتبه النسبة) وكتاب (المؤتلف والمختلف)، وكذلك أبو أسامة جنادة محمد اللغوي[51] وكان يتولى التدريس بجامع عمرو وأبو الحسن بن سليمان الأنطاكي النحوي[52]، كذلك انتقل إلى دار العلم داعي الدعاة وكانت وظيفته القيام بقراءة كتب الفقه الخاصة بالشيعة وأصول العقيدة[53] وأخذ العهود على من ينتقل إلى مذهبه [54]. وأدى شغف الخليفة الحاكم بأمر الله بالتنجيم والكيمياء بالذات إلا أنه فتح الباب أمام الباحثين في هذه العلوم من فلاسفة وأطباء ومنجمين. وفي ظل رعايته استطاعت دار الحكمة أن تنمو بسرعة بحيث لم يمضِ سوى قليل حتى ازدهرت وسار ذكرها في الآفاق وهرع إليها الطلاب من سائر الأقطار. وتبوأت مركز الزعامة في الدراسات العلمية والفقهية[55].

فقد استمرت دار الحكمة في أداء رسالتها العلمية إلى أن اضطربت شؤونها في عهد الخليفة المستنصر وانتهى الأمر إلى أن أغلقت في أوائل القرن السادس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أيام الخليفة الآمر بأحكام الله إذ أغلقها الأفضل بن أمير الجيوش بسبب اجتماع الناس فيها والخوض في المذاهب خوفاً من الاجتماع على المذهب النزاري، ثم عادت وفتحت أبوابها في عهد الخليفة الآمر ووزيره مأمون البطائحي، واقتصر التدريس فيها على القرآن الكريم[56].

التعليم في القصور:

أقام الفاطميون عدة مدارس بقصورهم اتخذت لها طابعاً خاصاً وتلامذة من نوعية معينة حيث يلتحق بها أولاد علية القوم وسراتهم، ويسر المؤدبون في تثقيف هؤلاء الصبيان وتعليمهم على منهاج خاص يرمي إلى إعدادهم لخدمة الخلفاء وشغل المناصب الرئيسية في دولة الخلافة[57]. أما المجالس التي كان يعقدها الخلفاء في القصور فكانت للبحث والمناظرة وكان يجتمع إليها الأدباء والشعراء(وساعد على ازدهار هذه المجالس شغف المصريين بالعلم وإقبال الأدباء على المناظرة طمعاً في منح الخلفاء والأمراء والوزراء ونيل الحظوة عندهم)[58].

ولكن الحقيقة أن هذه المجالس إنما كانت تعقد بالدرجة الأولى لشرح الفقه الشيعي والدعوة له وترغيب الناس فيه. ويبدو أن هذه المجالس قد نجحت إلى حد كبير في هذا الهدف. على أن هذه المجالس لم تقتصر على قصور الخلفاء فقط، بل نجد كثيراً من الوزراء الفاطميين يقيمون هذه المجالس في قصورهم، فالوزير يعقوب بن كلس رتب في داره العلماء من الأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأجرى لجميعهم الأزراق وألف كتاباً في الفقه ونصب مجلساً يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل، وتجرى بينهم المناظرات)[59]. ويبدو أن هذا المجلس كان خاصاً بطبقة المتعلمين والمثقفين فقط.

خزائن الكتب:

ولع الخلفاء الفاطميون باقتناء الكتب[60] ولعاً شديداً و خاصة أن معظمهم كان له اهتمام كبير بالعلوم لاسيما العلوم الدينية. ذلك أنهم دعاة مذهب جديد والوسيلة إلى نشره هي المناقشة والمناظرة والإقناع بأحقية الفاطميين في الخلافة، وقد بدأت خزائن الكتب الفاطمية في النمو منذ وصول المعز لدين الله الفاطمي إلى القاهرة حيث أحضر معه الكثير من هذه الكتب. ويحكى عن المعز أن رجلا حمل إليه مصحفا يقال إنه كان ليحيى بن خالد البرمكي ووجده معجباً به، فدعا المعز بإحضار مصحف يفوقه خطاً وإذهاباً وتجليداً وقال «هذا خط المنصور وإذهابه وتجليده بيده»[61].. وقه خطا وا كان خالينة حيث يلتقوقد تركزت هذه الكتب بالخزائن الموجودة بالقصور وخزائن دار

العلم والمارستان[62] كذلك وجد بعضها بالمساجد. وكان اهتمام الخلفاء الفاطميين بالكتب يفوق الوصف، لدرجة أنهم كانوا يقتنون من الكتاب الواحد عدداً كثيراً من النسخ. وإلى جانب ذلك فقد كانت خزائن الكتب تحوي كتب السنة والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتاريخ وسير الملوك والنجامة والروحانية والكيمياء حتى كتب السحر والطلمسات وبلغ عدد خزائن الكتب الموجودة بالقصر الكبير أربعين خزانة. وكان الخلفاء كثيري التردد على خزائن الكتب وخاصة خزانة[63] المارستان فكان الخليفة منهم يتوجه إليها راكباً ثم يترجل على دكة منصوبة هناك. ويجلس عليها ثم يحضر إليه متولي أمور المكتبة بالمصاحف[64]. بالخطوط المنسوبة وغير ذلك. وتحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم، والرفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب يقفل عليه بمفصلات وقفل[65] مما يؤكد حرصهم على مقتنياتهم ضد الضياع أو السرقة. وقد حظيت هذه الكتب بالعناية والاهتمام وعمل الفهارس الخاصة بهم وترميم ما قد يتلف من أغلفتها وصفحاتها، وذكر ابن السبندي الذي تولى مهمة ترميم الكتب وفهرستها في إحدى المرات أنه رأى من كتب النجوم والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء[66]، على أن الكتب الفاطمية تعرضت للنهب والسرقة في وقت الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر فضلا عما بيع منها. ولم يكن اهتمام الوزراء الفاطميين بالكتب أقل من خلفائهم فيكفي مثلا أن الوزير الأفضل بن أمير الجيوش قد اشترى عشرة آلاف مجلدة دفعة واحدة، فلما ملك صلاح الدين الديار المصرية استولى على كنوز الفاطميين وخزائنهم ويصف أبو شامة[67] خزائن الكتب بأنها كانت من عجائب الدنيا[68].

ظهور المدارس :

استمرت المساجد ودار العلم في أداء رسالة التعليم التي عينتها الدولة الفاطمية وسخرتها لنشر مذهبها. ورغم وجود بعض التسامح والحرية العلمية في الفترة الأولى من حكم الحاكم بأمر الله، إلا أنه سرعان ما عاد إلى نزعته الدينية التعسفية واضطهاد علماء السنة. وقد استمرت سياسة إخضاع التعليم وفقاً لمذهب الدولة[69] الرسمي طالما كان نفوذ الفاطميين قوياً وسيطرتهم قوية على أمور الدولة. ولكن هذا النفوذ بدأ في التدهور نتيجة لما أصابها من الكوارث الاقتصادية وخاصة في عهد المستنصر، إذ الوزراء يستبدون بالسلطة ويستأثرون بالحكم، وأظهر بعضهم شيئاً من التسامح مع أصحاب المذاهب السنية وتركوا لهم حرية العبادة والدراسة وكان هذا يبدو واضحاً إذا ما قام في الوزارة أحد السنيين. ولكننا إذا تركنا القاهرة مركز الدعوة الشيعية[70]

وحاضرة الخلافة الفاطمية وجدنا بلداً مثل الإسكندرية لم تتأثر كثيراً بهذه الدعوة، ولم تكن السلطة فيها من القوة أو الشدة التي شهدتها القاهرة. فكان موقعها الجغرافي على ساحل البحر المتوسط غرب مصر مما جعلها مركزاً لتجمع الحجاج المغاربة الذين يفدون إليها من المغرب الإسلامي والأندلس لأداء فريضة الحج. ولكثير من العلماء والدارسين الذين كانوا يرحلون في طلب العلم إلى المشرق الإسلامي خاصة في الوقت الذي بدأت تظهر ملامح النهضة العلمية متمثلة في إنشاء المدارس التى أقامها نظام الملك الوزير السلجوقي في العراق أو للمجاورة لسماع الفقه والحديث في الأراضي المقدسة سواء بالحجاز أو بيت المقدس. ومن أشهر المدارس مدرسة الطرطوشي[71] ومدرسة أبي الطاهر بن عوف[72] ومدرسة الحافظ السلفي[73].

مما لا شك فيه أن العصر الفاطمي تميز بنوع خاص من الدراسات التى تختلف عما درج عليه المصريون، هذه الدراسات تتعلق بالعقيدة إذ كان للشيعة فقههم الخاص الذي يخالف فقه أهل السنة في كثير من الوجود كما كانت لهم نظرة خاصة في علم الحديث، أما باقي العلوم كالعلوم اللغوية وغيرها فإنها لم تتأثر بشيء لثباتها وعدم ارتباطها بشيء يدعم مركز الشيعة في ادعائهم بأنهم ورثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم استغلوا بعض هذه العلوم من جهة أخرى في الدعاية لمذهبهم فنمت وازدهرت نتيجة لذلك وبالأخص الشعر لأنهم وجدوا أن الشعراء من أصلح الدعاة فاحتضنوهم[74] واجزلوا لهم العطاء ليطلقوا ألسنتهم بالقول في مدحهم ومدح مذهبهم[75]، وأصبحت مصر في عهد الفاطميين مقصداً لكثير من الشعراء الذين وفدوا[76] عليها من المغرب والعراق والشام واليمن بالإضافة إلى الشعراء المصريين، وصاحب ذلك ازدهار في الدراسات النحوية، وظهور بعض النحاة المتمكنين ومن أشهرهم أبوبكر الأدفوي الذي ألف كتاباً في علوم القرآن في مائة وعشرين مجلداً وابن بابشاد الذي ألف شرحاً على كتاب الجمل للزجاج والمحتسب في النحو، وكان لديوان الإنشاء الفاطمي أثره الكبير في تقدم النشر بصفة خاصة[77] أما العلوم التى حظيت بالرعاية، وتوفرت لها سبل النمو والازدهار في تلك الفترة فهي علوم الفلسفة والنجوم والطب، وقد توفرت الرعاية للمشتغلين بهذه العلوم نتيجة لاهتمام الخلفاء الفاطميين واشتغالهم[78] ببعض هذه العلوم بل وتعمقهم فيها أو لأنها علوم تساعد في فهم الدعوة الشيعية والدعاية لها. وخلاصة القول، فإن العصر الفاطمي يعد من أهم الفترات وأكثرها اهتماماً بالتعليم والإدراك لقيمته، وأن حقيقة ازدهار وتقدم البلاد لا يكون إلا بالعلم والتعلم. فبالتالي،استطاعت الدولة الفاطمية بقوة نفوذها

في مصر أن تنشر مذهبها في المساجد ودور العلم والمدارس ولم تهمل أيضاً العلوم الأخرى، وذلك نظراً لطول حكمها وما استطاع خلفاؤها أن يقدموا من إنجازات وما تركوا من تراث. وحيث إن النشاط العلمي في تلك الفترة كان سبباً في تطور الأنشطة الأخرى مثل الفن والأدب والثقافة، فقد كانت بمثابة العصر الذهبي لمصر حيث إنه لا تزال بعض آثارها ملموسة في العصر الحالي.

وختاماً نحمد الله أن وفقنا من انتهاء هذا العمل، اللهم اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين، والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على من أرسله الله رحمة للعالمين.

المصادر والمراجع:

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، دارالفكر العربي، القاهرة، 1948م، ص198

(2) المقريزي، الخطط، مطبعة بولاق، القاهرة، 1284هـ، ج2، ص339

(3) بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، وزارة الثقافة، 1963م، ج4، ص31

(4) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج10، سنة 400هـ، مخطوطة بدار الكتب المصرية

(5) السيوطي، حسن المحاضرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1992م، ج2، ص13

(6) المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948م، ص158 – 162

(7) المقريزي، الخطط، مطبعة بولاق، القاهرة، 1284هـ، ج2، ص342

(8) القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1963م، ج10، ص423 – 424

(9) خطاب عطية، التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970م، ص101

(10) المقريزي، المصدر السابق، ص249

(11) المقريزي، المصدر السابق، ص 284

(12) المقريزي، المصدر السابق، ص340

(13) العيني، المصدر السابق

(14) السيوطي، المصدر السابق، ص151

(15) خطاب عطية، المصدر السابق، ص102

(16) المقريزي، المصدر السابق، ص249

(17) السيوطي، المصدر السابق، ص151

(18) العيني، المصدر السابق

(19) خطاب عطية، المصدر السابق، ص102

(20) السيوطي، المصدر السابق، ص212-213

(21) ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج2، ص390

(22) بمعنى: فسقية

(23) السيوطي، المصدر السابق، ص 188-213

(24) المقريزي، المصدر السابق، ص266-267
(25) عبد الغني محمود عبد العاطي، التعليم في مصر، دار المعارف، القاهرة، 2003م، ص20-21
(26) المقريزي، المصدر السابق، ص340
(27) أحمد أمين، ضحى الإسلام، القاهرة، 1966م، ص56
(28) المقريزي، المصدر السابق، ص340
(29) المقريزي، المصدر السابق، 262
(30) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص 32
(31) ابن أيبك، كنز الدرر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1971م، ج8، ص121
(32) المقريزي، المصدر السابق، ص340
(33) محمد عبدالله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1942م، ص41
(34) حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، مطبعة دار النشر المصرية، القاهرة، 1946م، ص52
(35) خطاب عطية، المصدر السابق، ص112
(36) المقريزي، المصدر السابق، ص340
(37) ابن أيبك، المصدر السابق، ص121
(38) خطاب عطية، المصدر السابق، ص113-114
(39) المقريزي، المصدر السابق، ص276
(40) محمد عبدالله عنان، المصدر السابق، ص56
(41) المقريزي، المصدر السابق، ص274
(42) ابن أيبك، المصدر السابق، ص256-257
(43) المقريزي، المصدر السابق، 241
(44) محمد عبدالله عنان، المصدر السابق، ص52
(45) محمد عبد الرحيم غنيمة، تاريخ الجامعات الإسلامية، دار الطباعة المغربية، المغرب، 1953م، ص58-59
(46) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، جامعة القاهرة،القاهرة، 1978م، ص156
(47) محمد عبدالله عنان، المصدر السابق، ص52
(48) خطاب عطية، المصدر السابق، ص156
(49) المقريزي، المصدر السابق، ص241

(50) ابن خلكان، المصدر السابق، ص390
(51) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق/بيروت، 1986م، ص188
(52) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص222
(53) محمد عبد الرحيم غنيمة، المصدر السابق، ص59
(54) خطاب عطية، المصدر السابق، ص 160-161
(55) محمد عبدالله عنان، المصدر السابق، ص54
(56) القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص366
(57) خطاب عطية، المصدر السابق، ص177
(58) المقريزي، المصدر السابق، ص340
(59) المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، دارالفكر العربي، القاهرة، 1948م، ص202
(60) خطاب عطية، المصدر السابق، ص188
(61) المقريزي، الخطط،مطبعة بولاق، القاهرة، 1284هـ، ج2، ص339
(62) العيني، السيف المهند، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1966م
(63) المقريزي، المصدر السابق، ص408
(64) المقريزي، المصدر السابق، ص408
(65) المقريزي، المصدر السابق، ص408
(66) خطاب عطية، المصدر السابق، ص192
(67) أبو الشامة، الروضتين، دار الجيل، بيروت، 1996م، ج1، ص200
(68) ابن كثير، البداية والنهاية، مطبعة بولاق، القاهرة، 1284هـ، ج12، ص266
(69) محمد جمال الدين الشيال، إعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، 2003م، ص51-52
(70) عبد الغني محمود عبد العاطي، المصدر السابق، ص30
(71) محمد جمال الدين الشيال، المصدر السابق، ص60
(72) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، 1970م، ص95-96
(73) ابن كثير، المصدر السابق، ص307
(74) السيوطي، المصدر السابق، ص323-324
(75) ابن خلكان، المصدر السابق، ص64

(76) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، 1991م، ج3، ص551-553

(77) أحمد أمين، ظهر الإسلام، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1966م، ج1، ص206

(78) محمد جمال الدين الشيال، المصدر السابق، ص148-149